مجلة جامعة المهرة للعلوم الإنسانية
مجلة علمية محكمة نصف سنوية
عدد محكم خاص بأبحاث المؤتمر الدولي الأول بجامعة المهرة.
27-28- أكتوبر 2024م
ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

الأدب بوصفه قوة فاعلة في خلق الاستقرار المجتمعي

(دراسة أنثروبولوجية)

أ.د. عبد الكريم حسين رعدان [*] r.adan2009@hotmail.com

أ. د. عادل كرامة معيلي [*] akaramah@gmail.com

ملخص:

سعى هذا البحث إلى دراسة موضوع **(الأدب بوصفه قوة فاعلة في خلق الاستقرار المجتمعي دراسة أنثروبولوجية)**، متتبعا الجوانب القيمية والإنسانية وتعالقها مع الواقع والثقافة والسلوك والممارسات. كما قدم لمحة عن فاعلية الأدب وأثره، من خلال تتبع الوظائف الأنثروبولوجية، وكيفية البحث عن الجوانب المؤثرة في تغيير الواقع النفسي والاجتماعي والثقافي، ويرصد عملية التأثير الإبداعي على المتلقي وجعله أكثر قدرة على الفهم والتفكير والتذوق، إذ عرض نماذج من النصوص الأدبية، وتحليلها ورصد أبعادها، وبيان أثرها في طبيعة النفس والحياة ورصد قدرتها على تحقيق الاستقرار والأمن والبناء. إن الأدب وسيلة وعي متقدمة يغرس صفة تقبل الآخر فردا ومجتمعات وثقافة، فهو يعطي صورة عما لدى الآخر ويقدمها في صورة وجدانية متقبلة، ومن هنا تزول التوترات في العلاقة وفي المنظور للآخر، ويحفز على التسامح والتفاهم وينتج هنا استقرارا وتوافقا ويرسم سبل الاحترام بين الناس. ولعل المنهج الأقدر على تتبع هذه العناصر وتلك العلاقات بين الأدب وواقع المجتمع هو المنهج الأنثروبولوجي.

الكلمات المفتاحية: الأدب - قوة فاعلة - الاستقرار المجتمعي - أنثروبولوجيا

---

[*] أستاذ البلاغة والنقد جامعة المهرة.

* أستاذ اللغة والنحو بجامعة المهرة.

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

Literature as a Powerful Force in Creating Social Stability
(An Anthropological Study)

Prof. Dr. Abdul Karim Hussein Raadan * Prof. Dr. Adel Karameh Maili *

Abstract:

This research sought to study the topic (Literature as an effective force in creating societal stability, an anthropological study), tracing the values and human aspects and their relationship with reality, culture, behavior, and practices. It also provided an overview of the effectiveness of literature and its impact, by tracking the anthropological functions, and how to search for aspects influencing the change in psychological, social and cultural reality, and monitoring the process of creative influence on the recipient and making him more capable of understanding, thinking and tasting, by presenting examples of literary texts, analyzing them and monitoring their dimensions. Explaining its impact on the nature of the soul and life and monitoring its ability to achieve stability, security and construction. Literature is a wide-ranging means that instills the quality of acceptance of the other, individually, in societies, and in culture. It gives an image of understanding with others, excluding them, in an accepting, sentimental form. Hence, dealing with others disappears, and it encourages tolerance and understanding, and here produces stability and harmony and draws cooperation between people. Perhaps the method most capable of tracking these elements and those relationships between literature and the reality of society is the anthropological method.

Keywords: Literature - Powerful Force - Social Stability - Anthropology

* Professor of Rhetoric and Criticism at Al Mahrah University.

* Professor of Language and Grammar at Al Mahrah University.

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

مجلة
جامعة المهرة
للعلوم الإنسانية
مجلة علمية محكمة نصف سنوية
عدد محكم خاص بأبحاث المؤتمر الدولي الأول بجامعة المهرة.
27-28- أكتوبر 2024م
ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

مقدمة:

يمثل الأدب عموما مرحلة متقدمة من مراحل النضج العقلي الإنساني وإبداعاته التي أوجدها ضمن تواصله الحثيث في الحياة مع أفراد جنسه، والشعر واحد من تلك الفنون الأدبية حين أتى في مرحلة متطورة للغة العربية، أنتجه الشاعر العربي وأنضجه منذ العصر الجاهلي، فكان توأم روحه، ومرفأ ذائقته وديدن سليقته، ومتاع وجدانه وعواطفه؛ تغنى به في كل المناسبات والمناشط، في السلم وفي الحرب، في الأفراح والأتراح، وأسمع الدنيا به غزلا وشوقا وافتخارا ومدحا وهجاء ورثاء.

لقد كان الأدب واحدا من الطاقات التي تعبّر عن الإنسان أصدق تعبير، فيصور أفكاره، ويتغنى بمشاعره وعواطفه ووجدانه، ويخفف عنه لوعته ويواسيه مما يشعر به من آلام، بما يمتلكه من إبداع وجمال، الجمال الذي هو غاية ووسيلة لاستقرار الذات الإنسانية، وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها.

الجدير ذكره في هذا السياق، أن هناك علاقة وطيدة بين فنون الأدب الجميل الراقي، وبين استقرار المجتمع وازدهاره الثقافي، فالواقع وقضاياه المعقدة تتطلب ذلك الأدب العالي، ليشكل نشاطا فاعلا في إيجاد التوافق الأخلاقي والنفسي، فالأدب بفنونه المختلفة شعرا ونثرا، يعتبر وسيلة إنسانية تتعمق في سبر طبيعة سلوك الناس وطبائعهم، وتسعى إلى إعادة اكتشاف الجوانب الذاتية المؤثرة، وتعمل على إيجاد واحات وارفة الظلال، يطمئن في أفيائها المتلقي، وتتفاعل معها مشاعره وعواطفه وأفكاره فتؤثر على النفس فتطمئن وتهدأ ويستقر معها الواقع، فتسوده قيم الأمن والفضائل، وتحفزه نحو العمل والإبداع والتنمية في مجالات الحياة كلها. ومن جانب آخر فإن الأدب قد يكون أداة إفساد وقد يؤدي إلى النزاع والصراعات.

وهذا البحث سيعطي لمحة عن فاعلية الأدب وأثره، من خلال تتبع الوظائف الأنثروبولوجية، وكيفية البحث عن الجوانب المؤثرة في تغيير الواقع النفسي والاجتماعي والثقافي، ويرصد عملية التأثير الإبداعي على المتلقي وجعله أكثر قدرة على الفهم والتفكير والتذوق، وسيقدم نماذج من النصوص الأدبية، وتحليلها ورصد أبعادها، وبيان أثرها في طبيعة النفس والحياة ورصد قدرتها على تحقيق الاستقرار والأمن والبناء. ولعل المنهج الأقدر على تتبع هذه العناصر وتلك العلاقات بين الأدب وواقع المجتمع هو المنهج الأنثروبولوجي.

وسيكون البحث في محورين، المحور الأول: دراسة في المفاهيم النظرية والمصطلحات، والمحور الثانية دراسة تطبيقية تحليلية.

المحور الأول: المفاهيم والمصطلحات النظرية

مفهوم الأدب

الأدب هو ذلك النوع الكلامي الجميل المعبر عن الأفكار والمشاعر والأحاسيس والتجارب، والذي قيل أو كُتب بلغة فنية راقية، وبأسلوب ممتع ومؤثر. أو "هو العبارة الفنية عن موقف إنساني في عبارة موحية"[1]. ويشمل جميع الأشكال الأدبية، بما فيها الشعر، والرواية، والقصة، والمسرحية، والمقالة، وغيرها، وتبدو

(1) في الميزان الجديد: 100.

أهمية الأدب في كونه متغلغلا في حياة الإنسان، وفي فكره وثقافته، ويسيطر على قواه وعقليته وذاته، فهو مظهر من مظاهر الإبداع والفن، وندرك ذلك حين نرى توهج الشعراء في إبداعاتهم الشعرية، وكيف يواكبون تجاربهم وعواطفهم وأفكارهم بكلماتهم الحية الناطقة، ويرسمون دوران أيامهم وما فيها من أحداث جرت في بيئتهم ومقاطنهم، بتنوع الزمان والمكان.

والأديب هو شخص صاحب رسالة وغاية بناءة في المجتمع ويعمل بطاقته الإبداعية على غرس القيم الأصيلة ويسعى بأدبه لخلق توافق نفسي وعاطفي وفكري، يؤدي إلى استقرار عام، وهذا المفهوم أشار إليه الشاعر المخضرم الكبير حسان بن ثابت، في قوله[1]:

وَ إِنَّما الشِعرُلُبُّ المَرءِ يَعرِضُهُ عَلى المَجالِسِ إِن كَيساً وَإِن حُمُقا
وَإِنَّ أَشعَرَبَيتٍ أَنتَ قائِلُــهُ بَيتٌ يُقــالَ إِذا أَنشَـدتَهُ صَدَقا

ونرى تحقق الوظيفة النفسية من خلال الأدب المؤثر الجميل في تَمَثّلِ أبي بكر الصديق رضي الله عنه ببيتين من الشعر لشاعر الجاهلي تميم بن مقبل حين يقول[2]:

لا يحرز المرء أحجاء البلاد ولا تبنى له في السماوات السلاليمُ
مَا أَطْيَبَ الْعَيْشَ لَوْ أَنَّ الْفَتَى حَجَرٌ تَنْبُو الْحَوَادِثُ عَنْهُ وَهُوَ مَلْمُومُ

فالشاعر أثار مكمنا نفسيا تمثل في ضعف الإنسان وقصور قدراته في مواجهة الحياة ومتاعبها، وقلة حيلته في تحقيق آماله كلها ولذته بطيب عيشه، فذلك لن يتأتى إلا أن يكون الإنسان شبيها بالحجر لا يتأثر بهموم الحياة ومصاعبها.

الأدب والأنثروبولوجيا

ظهرت الأنثروبولوجيا مصطلحا في الإنجليزية منتصف القرن السابع عشر، ثم تطورت وأصبحت علمًا متخصصًا نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، يبحث في عقائد الشعوب وعاداتها وأعرافها وثقافاتها، والمصطلح منحوت من كلمتين يونانيتين Anthropos أي: إنسان، وLogos أي؛ عقل، أو تعقل. أو (مجازا) علم، لتدل في مجملها على (علم الإنسان، أو دراسة الإنسان) في النهاية جمعا بين الكلمتين: "دراسة وعربت في بعض الدراسات المعاصر بـ(علم الإناسة). وقد عرفها الباحثون بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث كونه كائنًا عضويًا يعيش في مجتمع تسوده أنساق ونظم ثقافية، واجتماعية وسياسية يقوم بأعمال ويمارس سلوكيات معينة[3].

وترتبط الأنثروبولوجيا بعلوم أخرى كعلم النفس، وعلم الاجتماع، إذ إن علم النفس يدرس سلوك الإنسان ولكن بوصفه سلوكًا فرديًا، فلكل فرد شخصيته المستقلة في جوانبها النفسية وغرازها، فتسعى

(1) العمدة في محاسن الشعروآدابه:114/1.

(2) لباب الآداب: 425.

(3) ينظر: مدخل إلى علم الإنسان الأنثروبولوجيا: 14،13.

الأنثروبولوجيا إلى دراسة هذه الجوانب وتهتم بها، أما علم الاجتماع فهو أحد العلوم الإنسانية التي ظهرت حديثا، فيدرس الإنسان بوصفه كائنًا اجتماعيًا، كما يدرس العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع، ومن هنا فإن أهداف علم الأنثروبولوجيا وأهداف علم الاجتماع، تتقاطع في دراسة الإنسان بوصفه كائنا يعيش في مجتمع له غرائزه وثقافاته وعاداته وتقاليده، ومن العلماء من يرى أن علم الأنثروبولوجيا هو علم الاجتماع المقارن[1].

والأدب يوفر عناصر أنثروبولوجية عديدة منها، ما يتعلق بالجوانب الثقافية والإنسانية والاجتماعية، حين يكون قادرا على اقتناص الأنساق الثقافية والتعبير عنها وتصويرها، فمن خلال البحث في نصوص الأدب والشعر والأمثال والروايات والقصص وكل الأشكال الإبداعية الأخرى، وإلقاء الضوء على جذورها التاريخية وما يدخل في موازين السلطة وتأثيرها في الاستقرار والتنمية، وهذه هي المهام التي يتتبعها الأنثروبولوجي في تلك الفنون الإبداعية[2].

وتأتي أهم السمات والوظائف الأنثروبولوجية للأدب - إضافة إلى قدرته على التعبير المباشر عن مكنونات النفس العاطفية والنفسية - أنه يعبر عما يعتري الإنسان من آلام وما يحدوه من آمال، ويعطيه وعيا كافيا للتعامل مع التجارب الحياتية والمواقف التي يجابهها في الواقع الحياتي.

وهذا ما ندركه من خلال ما يصحب إنتاج الأدب من لحظات وما تكتنفه من مناسبات وظروف، في آنية القصائد الشعرية القديمة، وفي المقولة التي جسدت أهمية الشعر حين قالوا بأن "الشعر ديوان العرب" فهو صورة العربي ومرآة عصره، والسجل الصادق لحياته. فتروي لنا كتب التاريخ أن قبيلة تغلب عكفت على قصيدة واحدة من قصائد شاعرها الكبير عمرو بن كلثوم، وظلت ترددها صباحا ومساء وتنشدها القوافل في الأسفار وحين النواح في المآتم، وعلى الموتى، وفي الأفراح وغيرها. حتى قال قائلهم[3]:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبدًا مذ كـان أولهم يا للرجـال لشعر غير مسئوم

وهذا يؤكد لنا ارتباط الشعر والأدب بحركة المجتمعات وتأثيره في خلق واقع من الاستقرار وقدرته في وضع وشائج من العلاقات تؤطر أبناء ذلك المجتمع.

فالقصيدة تسجيل لأمجاد قبيلة تغلب وبطولاتها، وفيها حديث عن شجاعة رجالها، وبطولة شاعرها الذي أقدم بجرأة لرد الذل والمهانة - وفق معيار ذلك العصر - حين تعرض له عمرو بن هند، وقد انتهت بمقتل ذلك الزعيم. وهذه أطر أنثروبولوجية واجتماعية عالجتها القصيدة، ووضحت علاقتها بسير الحياة

---

(1) ينظر: مدخل إلى علم الإنسان الأنثروبولوجيا: 35، 40.

(2) ينظر: موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية.

(3) الشعر والشعراء: 230/1.

الإنسانية والعلاقات التي يجب أن تكون سائدة في المجتمع بعيدا عن ازدراء أو امتهان شخص لآخر. ومن أبيات هذه القصيدة[1]:

أَبــا هِنــدٍ، فَــلا تَعْجَــلْ عَلَينــا وَ أَنْظِرْنــا نُخَبِّــرْكَ اليَقينَــا
بِأَنّــا نُــورِدُ الرّايــاتِ بِيضــاً ونُصْــدِرُهنّ حُمــراً قَــد رَوِينَــا
فــإنَّ الضِّــغنَ بَعْــدَ الضّــغنِ يَفْشُــو عَلَيْــكَ، وَيُخــرِجُ الــدَّاءَ الــدَّفينَا
وَ أَيَّــامٍ لَنَــا غُــرٍ، طِــوالٍ عَصَــينا المَلْــكَ فيهــا أَنْ نَــدينَا
وَسَــيِّدِ مَعْشَــرٍ قَــدْ تَوّجُــوهُ بتــاجِ المُلْــكِ يَحمــي المُحجَرِينَــا
تَرَكنــا الخَيــلَ عاكِفَــةً عَلَيْــهِ مُقَلَّــدَةً أَعِنّتَهــا صُــفُونَا
وَ أَنْزَلَنــا البُيُــوتَ بــذي طُلُــوحٍ إلــى الشّــاماتِ نَنفــي المُوعِــدينَا
وَقَــدْ هَــرّتْ كِــلابُ الحَــيّ مِنّــا وَشَــذَّبْنا قَتَــادَةَ مَــنْ يَلِينَــا
وَرِثنــا المَجــدَ، قــد عَلِمــتْ مَعَــدٌّ نُطــاعِنُ دُونَــهُ حتــى يَبِينَــا
ونحــنُ إذا عِمــادُ الحَــي خَــرّتْ علــى الأحفــاض، نَمنَــعُ مَــن يَلينــا

إن الأديب ليس مستقلا بأدبه عن واقع مجتمعه، بل إن ما يقوله جزء من كيان ذلك المجتمع الذي يعيشه، وهو صادر عن نفسياته، ومعبر عن آلامه وأماله وقضاياه. ونتاجه ثمرة لما غرسه في فكره ووجدانه، الذي شكله عبر مسيرته فيه.

المحور الثاني: الدراسة التطبيقية التحليلية

الأدب و أنثروبولوجيا السلم والحرب

تبدو الحرب واحدة من الجوانب الأنثروبولوجية التي يتلمسها الأدب بشكل عام وفي الشعر بشكل خاص، إذ نجد لها مساحة واسعة وبالذات في العصور القديمة، ونستعرض نصا شعريا مهما من الشعر الجاهلي استجلى فيه الشاعر واحدة من تلك الحروب والصراعات وما يتعلق بها من عواقب ومآلات، فحرب عبس وذبيان واحدة من الحروب المأساوية التاريخية التي دارت رحاها بين القبيلتين العربيتين، وجرَّتْ عليهم الويلات وطالت حتى تفانى الفريقان أو كادوا.

كان زهير ابن أبي سلمى شاعرا من شعراء العرب وحكيما خبر الحياة وتجاربها، فسجل في معلقته حادثة الحرب وصور شناعتها وقبحها، وأشاد بالصلح ومدح من قام به ومن سعى فيه، وحاول أن يرمم بشعره نفسيات القوم المتحاربة، ويربت على المصابة أرواحهم، فسجل قصائده وأشاد بالصلح، وأسهم في دعم الجهود لإيقاف الحرب، فقال[2]:

فَأَقْسَمْتُ بِالبيْتِ الذي طَافَ حَوْلَهُ رِجَــالٌ بَنَــوْهُ مِــنْ قُــرَيْشٍ وجُــرْهُمِ

(1) جمهرة أشعار العرب: 180-183.

(2) شرح المعلقات السبع: 139-148.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

يَمينـــاً لَـــنِعْمَ السَّـــيدَانِ وُجِـــدْتُمَا ... عَلَـى كُـلِّ حَـالٍ مِـنْ سَـحيْلٍ وَمُبْـرَمِ
تَـــدَارَكْتُما عَبْســـاً وذُبْيَـــانَ بَعْـــدَما ... تَفَـــانَوْا وَدَقّـــوا بَيْـــنَهم عِطـــرَ مَنْشَـــمِ
وَقَـد قُلتُمـا إنْ نُـدرِكِ السّـلمَ واسِـعاً ... بِمَـــالٍ وَمَعْـــرُوْفٍ مِـــنَ الأمـــرِ نَسْـــلَمِ
فَأَصْـبَحْتُمَا مِنْهـا على خَيـرِ مَـوْطِنٍ ... بَعيـــدَيْنِ فيهـــا مِـــنْ عُقُـــوقٍ وَمَـــأثَمِ
عَظِيْمَـيْنِ فـي عُليـا مَعَـدٍ هُـدِيْتُمَا ... وَمَـنْ يَسْـتَبِحْ كَنـزاً مِـنَ المَجْـدِ يَعْظُـمِ
وَأَصْـبَحَ يُحْـدَى فـيهِمُ مِـنْ تِلادِكُـمْ ... مَغَـــانِمُ شَـــتَّى مِـــنْ إفـــالٍ مُـــزَنَّمِ
تُعَفّـى الكُلُـومُ بـالمئينَ وَأَصْـبَحَتْ ... يُنَجِّمُهـــا مَـــنْ لَـــيْسَ فِيهَـــا بمُجْـــرِمِ
يُنَجِّمُهـــا قَـــومٌ لِقَـــوْمٍ غَرَامَـــةً ... وَلَـــمْ يُهَرْيِقـــوا بَيْـــنَهُمْ مِـــلءَ مِحْجَـــمِ
أَلاَ أَبْلِـــغِ الأَحْـــلافَ عَنِّـــي رِسَـــالةً ... وَذُبْيَـــانَ: هَـــلْ أَقْسَـــمْتُمُ كُـــلَّ مُقْسَـــمِ
فَـــلاَ تَكْـــتُمُنَّ اللَّهَ مـــا فـي صُـــدُورِكُمْ ... لِيَخْفَـــى وَمَهْمَـــا يُكْـــتَمِ اللَّهُ يَعْلَـــمِ
يُـــؤَخَّرْ فَيُوضَـــعْ فـي كِتـــابٍ فَيُـــدَّخَرْ ... لِيَـــوْمِ الحِســـابِ أو يُعَجَّـــلْ فَيُـــنْقَمِ

وبعد هذا الثناء والإشادة بهذين الزعمين العربيين، والذي يعد تعبيرا عن الحالة التي ينعم بها الناس، بعد قيام الصلح، فقد أصبح الجميع في أمن وسعادة، والفرحة بادية على الزعيمين، نتيجة لما قدماه من جهد ومال، كما أن القوم أصبحوا ينعمون بما يساق لهم من التلاد والمغانم الوفيرة، التي دُفعت ثمناً لدماء قتلاهم. وفي ظل هذه الصورة الجميلة، للسلم والاستقرار، ينتقل الشاعر إلى حث القوم على نبذ الفرقة والضغائن، ثم يذكر القوم بصورة الحرب الفظيعة[1]، فيقول[2]:

وَمَـا الحَـرْبُ إلاّ مـا عَلِمْـتُمْ وَذُقْـتُمُ ... وَمَـــا هُـــوَ عَنْهَـــا بالحَـــديثِ المُـــرَجَّمِ
متـى تَبْعَثُوهـــا تَبْعَثُوهَـــا ذَمِيْمَـــةً ... وَتَضْـــرَ إذا ضَـــرّيْتُمُوها فَتَضْـــرَمِ
فَتَعْـــرِكُكُمْ عَـــرْكَ الرّحَـــى بِثِفَالِهـــا ... وَتَلْقَـــحْ كِشَـــافاً ثُـــمَّ تُنْـــتَجْ فَتُتْـــئِمِ
فَتُنْـــتِجْ لَكُـــمْ غِلْمَـــانَ أَشْـــأَمَ كُلُّهُـــمْ ... كَـــأَحْمَرِ عَـــادٍ ثُـــمَّ تُرْضِـــعْ فَـــتَفْطِمِ
فَتُغْلِـــلْ لَكُـــمْ مـــا لا تُغِـــلُّ لأَهْلِهَـــا ... قُـــرىً بِـــالعِراقِ مِـــنْ قَفِيْـــزٍ وَدِرْهَـــمِ
كِـرامٍ فَـلا ذُو الضِّـغْنِ يُـدْرِكُ تَبْلَـهُ ... وَلاَ الجـــارِمُ الجَـــاني عَلَـــيْهِمْ بِمُسْـــلَمِ
رعَـوا مـا رَعَـوا مِـنْ ظِمـئِهِم ثُـمَّ أَصْـ ... ـــدَروا إلـى كَـــلأٍ مُسْـــتَوبَلٍ مُتَـــوَخِّمِ

وبعد أن بين الشاعر وأوضح كيف ذاق فالجميع ويلات الحرب، واكتوى بنارها وأصابه شرها المستطير، وأن جرحها يبقى زمانا لا يندمل نتيجة لما خلفته من المآسي والويلات، يحاول الشاعر أن يذكر بعض العوامل التي تتعلق بالحرب، ويعلل لبعض الأحداث قبل وبعد الصلح، ومنها تلك التصرفات الطائشة

(1) ينظر: خصائص الأسلوب الأدبي والبلاغي في العصرين الجاهلي والإسلامي

(2) شرح المعلقات السبع: 139-148.

التي قام بها بعض الشباب، كادت أن تعيد الحرب من جديد، ولذا فعلى الجميع أن يستفيد من التجارب[1]؛ فيقول[2]:

لَعَمْـري لَـنِعْمَ الحـيُّ جَـرَّ عَلَـيْهِمُ بمـا لا يُـؤاتِيهِمْ حُصَـيْنُ بْـنُ ضَمْضَـمِ
وكـانَ طَـوَى كَشـحاً على مُسْـتَكِنَّةٍ فَـــلاَ أَبْـدَاهَا وَلَـــمْ يَـتَجَمْجَمِ
وَقَـالَ: سَأَقضِـي حَـاجَتي ثُـمَّ أَتَقَّـي عَـدُوّي بِـأَلْفٍ مِـنْ وَرائِـيَ مُلْجَـمِ
فَشَـدَّ وَلَـمْ يَنْظُـرْ بُيُوتـاً كَثِـيرَةً لَـدَى حَيْـثُ أَلْقَـتْ رَحْلَهَـا أُمُّ قَشْـعَمِ
لَـدَى أَسَـدٍ شـاكي السِّـلاحِ مُقَـذَّفٍ لَـــهُ لِبَـــدٌ أَظْفَـــارُهُ لَـــمْ تُقَلَّـــمِ
جَـرِيءٍ مَتَى يُظْلَـمْ يُعَاقِـبْ بِظُلْمِـهِ سَـــريعاً وإلاّ يُبْـدَ بـالظُّلْمِ يَظْلِـمِ
لَعَمْـرُكَ مَـا جَـرَّتْ عَلَـيْهِمْ رِمَـاحُهُمْ دَمَ ابـــنِ نَهْيَـــكٍ أَوْ قَتِيـــلِ المُـــتَلَّمِ
ولا شَـارَكَتْ في الحَـربِ في دَمِ نَوْفَـلٍ ولا وَهَـــبٍ فيهـــا ولا ابـــنِ المُخَـــزَّمِ
فَكُـلاً أَراهُـمْ أَصْـبَحُوا يَعْقِلـــوُنَهُ صَـحَيحَاتِ مـالٍ طَالِعـاتٍ بِمَحْـرِمِ
تُسَـاقُ إلـى قـــومٍ لِقَـوْمٍ غَرَامَـةً عُـــلالَةَ أَلْـــفٍ بَعْـدَ أَلْـــفٍ مُصَـتَّمِ

وفي نهاية القصيدة يستشرف الشاعر المستقبل ويداوي جراحات الحرب، بمجمل من الحكم والأمثال، فيضع من خلالها منطلقات لبني قومه، ويستخلص من الماضي العبر، ويحدد القيم التي ينبغي أن يتحلى بها الجميع، ويرصد كل ذلك من موقع القائد الخبير بالحياة ومساراتها، يقول[3]:

ومَـنْ يَعـصِ أَطْـرَافَ الزِّجـاجِ، فإنَّـهُ يُطيـعُ العَـوَالِي رُكِّبَـتْ كُـلَّ لَهْـذَمِ
وَمَـنْ يُـوفِ لا يُـذْمَمُ وَمَـنْ يُفْـضِ قَلْبُـه إلـــى مُطْمَـــئِنِّ البِـــرِّ لا يَـــتَجَمْجَمِ
وَمَـنْ هـابَ أَسـبابَ المَنايـا يَنَلْنَـه وَلَـــو رَامَ أَسْـــبَابَ السَّـــماءِ بِسُـــلَّمِ
وَمَـنْ يَـكُ ذَا فَضْـلٍ، فَيَبْخَـلْ بِفَضـلِهِ علـى قَوْمِـهِ يُسْـتَغْنَ عَنْـهُ وَيُـذْمَمِ
وَمَـنْ لا يَـزَلْ يَسْـتَرْحِلُ النّـاسَ نَفْسَـهُ وَلاَ يُعْفِهـا يومـاً مـن الـذُّلّ يَنْـدَمِ
وَمَـنْ يَغْتَـرِبْ يَحْسَـبْ عَـدُوّاً صَـدِيْقَهُ وَمَـــنْ لا يُكَـــرِّمْ نَفْسَـــه لا يُكَـــرَّمِ
وَمَـنْ لَـمْ يَـذُدْ عَـنْ حَوْضِـهِ بِسِـلاَحِهِ يُهَـدَّمْ وَمَـنْ لاَ يَظلِـمِ النّـاسَ يُظْلَـمِ

والنص هنا يشير إلى "الحرب الشهيرة التي يتناقل الناس قصصها الطريفة حتى اليوم، وهي حرب ثارت بين عبس وذبيان بسبب اختلاف على سباق خيل كان قد تراهن عليه حذيفة بن بدر بن فزارة سيد ذبيان وقيس بن زهير، اشتركت فيه خيار خيل قيس وحذيفة وفي مقدمتها داحس والغبراء والخطار والحنفاء. وقد ادعى كل واحد من المتنافسين أن فرسه كان السابق، وأنه هو الكاسب للرهان في قصص طويل يتخلله شعر

(1) ينظر: خصائص الأسلوب الأدبي والبلاغي

(2) شرح المعلقات السبع: 139-148.

(3) شرح المعلقات السبع: 139-148.

وكلام وجواب. وانتهى النزاع إلى ما ينتهي إليه كل نزاع من هذا القبيل، وهي الحرب. وللشاعر زهير بن أبي سلمى ذكر فيها. ولم تنته إلا بتوسط الرؤساء حيث سويت بدفع الديات، وبإنهاء تلك الحرب التي شغلت تلك القبائل وأقلقت الأمن لذلك السبب التافه على زعم قول الرواة"[1].

وقد وصف النقاد قصيدة زهير هذه بأنها: "أشعر شعره. وقد جمعت ما أشبه كلام الأنبياء، وحكمة الحكماء ففيها الحكمة البالغة، والموعظة الحسنة، والأخلاق الفاضلة، والمعاني العالية والأغراض النبيلة، أضف إلى ذلك ما حوته من الأساليب البلاغية، والكلام الْجَزْل. وقد أنشأها يمدح بها: الحارث بن عوف، وهرم بن سنان المريين، ويذكر سعيهما بالصلح بين: عبس وذبيان، وتحملهما ديته من مالهما"[2].

وما يلفت في القصيدة أن الشاعر سجل هذه الأبيات ضمن معلقته بعد أن ذكر قبلها مشاهد من جمال الرحلة والنساء على الهوادج، والرياض الفتان في طريق رحلته الطويلة، حيث قال في ذلك[3]:

وفيهن ملهى للطيف ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

وكأنه حينما وصل إلى هذا المنظر الفتان، سبح به خاطره إلى جمال الخُلُق وروعة السلوك، وحب الخير والتضحية في سبيل الأمن والاستقرار، فشرع يتحدث عن الساعين في الخير، المحبين للسلام، الداعين إلى الإخاء والصفاء، فأشاد بموقف شخصين عظيمين قاما بعمل جليل، فقال إنهما تحملا ديات القتلى في حرب ضروس، بسببها قطعت الأرحام، وتفرق الأهل وتناحر الإخوان، فأصلحا ما أُفسِد، وجمعا الشمل. وأقسم بالبيت الحرام إنهما نعم السيدان في جميع الأحوال، وأنهما أصبحا في أعلى الدرجات بين العرب جميعهم، وقال لهما: لقد ضحيتما بكل ما تستطيعان في سبيل السلام وأخرجتما من أموالكما خيرها وأجودها، حتى ملأ البقاع صغيرها وكبيرها بدون أن يكون لكما في الحرب أي اتصال، ولكنه حبكما للخير ورغبتكما في السلام[4].

وإلى جانب البعد الأنثروبولوجي تبرز الوظيفة الجمالية للنص، فلاتزال هذه الأبيات حية نابضة مفعمة بالمشاعر، يجد فيها القارئ الإبداع والروعة. فلقد عاش زهير تجربة إنسانية مريرة بين الحروب يتجرع لظاها، ويشاهد حصادها؛ في القتل والخراب والتشرد، فكانت هذه القصيدة مما يُزْهَى به العصر الجاهلي من أدب رائع.

وهنا يُظْهِر الشاعر – معقبا - الحاجة للاستقرار الاجتماعي، واصفا لذة الشعور بالأنس في الموطن والواقع الجديد بعد الحرب، وكيف يعيشه الناس بعيدا عن الخوف والفزع والعقوق، فيقول[5]:

---

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: 10/ 32.

(2) شرح المعلقات السبع: 122.

(3) شرح المعلقات السبع: 131.

(4) ينظر: في تاريخ الأدب: 302.

(5) شرح المعلقات السبع: 139-148.

فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا على خَيرِ مَوْطِنٍ بَعيدَيْنِ فيها مِنْ عُقُوقٍ وَمَأثَمِ
عَظِيْمَينْ في عُليا مَعَدٍ هُدِيْتُمَا وَمَنْ يَسْتَبحْ كَنزاً مِنَ المَجْدِ يَعْظُمِ
وَأَصْبَحَ يُحْدَى فيهِمُ مِنْ تِلادِكُمْ مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إفالٍ مُزَنَّمِ

فقد أصبح السيدان العظيمان ومعهما أبناء القبيلتين، بعيدين عن العقوق والمأثم. بل حلّ الرخاء والمجد على الجميع. وينبه الشاعر إلى دفء العلاقات العائلية والقبلية المستقرة، وأهمية الوفاء بالعهود والتحلي بالحذر والذكاء في مواجهة التحديات، كل ذلك يسهم في بناء السلم والاستقرار الاجتماعي.

إن هذه المُثُل التي نراها في النص الشعري لزهير يؤكد أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا دعاة حرب، فقد كانوا ينشدون السلام والاستقرار، فتجدهم لذلك يحتملون المغارم في سبيل إيقاف نار الحرب، كما فعل الحارث بن عوف وهرم بن سنان اللذان توسطا بين عبس وذبيان واحتملا ديات قتلاهما[1].

أنثروبولوجية القصص والروايات

تبدو أهمية القصص بشتى أنواعها وكذلك الروايات في كونها الأقدر على عرض القضايا الاجتماعية، والأخلاقية والثقافية، وتناولها من زوايا متعددة، وبذلك تعزز التفاهم والتسامح لدى المتلقي بما تقدمه من وعي مقصود وموجه من قبل المبدع والكاتب، بأسلوب أدبي وخيالي مقنع.

إن البعد الأنثروبولوجيا في القصص والروايات يتلمس من خلال ما يتضمنه المضمون السردي فيها من مظاهر لحياة الإنسان المختلفة، الاجتماعية والنفسية والدينية، ومحاولة فهم العناصر الثقافية التي تتفاعل مع صلب حياة الإنسان، ومن خلال الأحداث الدرامية التي تمارسها الشخصيات، ومن خلالها يتعرف القارئ على الفروق التي يستند إليها الوجود الإنساني بين بيئة وأخرى في عنصر المكان، وما تتفاوت به المجتمعات في تحصيل مكاسب "التثاقف" الملائمة لها، وما تتأثر به من سمات حضرية أو بدوية، قديمة أو حديثة أو طبائع وغيرها[2].

فحين نتأمل في قصص وروايات الكتاب والأدباء نجد لتلك الأعمال أثرا بارزا على القارئ وفي الواقع المجتمعي. ومن النماذج القصصية العربية، قصة بعنوان (كرم) للكاتبة ليلى العثمان تقول: **(جلس على الرصيف مادّاً يده إلى المارّة. في المرة الأولى جمع ديناراً. في الثانية جمع مائة دينار. في الثالثة جمع ألف دينار. لم يعد يجلس على الرصيف. مضت سنوات طويلة.. شاهده المارة يسقط في كف سائل ألف دينار، صرخوا به: هذا كثير. قال: يوم جمعت ديناراً أكلتُ به، ويوم جمعت مائة اكتسيت، ويوم جمعتُ ألفاً تعلمتُ.. فوقيت نفسي ذل السؤال)**[3]. تتكثف في هذه القصة عدد من الأبعاد الأنثروبولوجية، التي

(1) ينظر: قصة الأدب في الحجاز: 454.

(2) ينظر: النقد الأدبي الأنثروبولوجي بين النظرية والتطبيق، (قراءة ثانية لشعرنا القديم، مصطفى ناصف أنموذجا): 8.

(3) قصص قصيرة جدا، منشورة على موقع القصة السورية، بتأريخ: 2024/08/15. الرابط:

http://www.syrianstory.com/othmanne.htm

تلامس قضايا إنسانية طالما يعاني منها المجتمع، فتحملنا القصة إلى قلب الإشكالية المجتمعية، ثم تعالجها بمجرى ثقافي كامن في نوازع الإنسان نفسه، فبإمكان الإنسان العاطل على العمل أن يقتنص لحظات حياتية تؤمن له الاستقرار الحياتي، والأمن المعيشي، وأيضا تحفز الأثرياء على فعالية عملهم في انتشال العديد من ضحيا التسول ومن الواقعين في براثن الفقر، في إشارة لفتح مشاريع منظمة بدلا من تبديد المساعدة في الصدقات والعطاءات الفردية الزهيدة التي لن تجدي.

وإن أهم ما تقدمه القصة أو الرواية، هو الفعل الحامل لقضايا واقعية أو حتى خيالية، بوصفها غايات لذلك السرد، تبدو عليه مقاصده، في تحقيق أبعاد الفعل اجتماعيا ونفسيا، وأيضا في فعل الشّخصيَّة الرّئيسة، أو الشخصيات في القصة أو الرواية، وتظهر دلالات محايثة، من بطولات تلك الشخصية، وتتجسد في قابليَّة التّحقّق، وظهور العوائق والتَّحدّيات، ومغالبة الصّعاب، وغير ذلك من الأفعال، ولكنَّه يبقى فعلًا مَرجعيًّا لجميع تلك الأفعال المترتّبة عليه، ومنطلقًا لسائر الأفعال الأخرى. والتي قد تشير إلى قضايا الحلمِ والدّعوى، والوعد والدعاء[1].

ولنقف على رواية من الروايات لندرك كيف تعمل في الفعل المنجز من خلال رصد العناصر الأنثروبولوجية وتتفاعل مع الواقع وقضاياه التي تم معالجتها سرديا، ففي رواية **(دموع على سفوح المجد للكاتب عماد زكي)**[2]، نجد لهذه الرواية أثرا بالغا أحدثته في أوساط طلاب الجامعات العربية لما تحمله من غايات، وقد قال عنها الكاتب نفسه بأنها "لوحة حزينة من صميم الحياة، التقطت أحداثها من بحر النسيان، فحملتها إلى شطآن الذاكرة، فجففتها بمدادي وغلفتها بكلماتي، بعد أن أعدتُ إليها بعض معالمها الضائعة، وعمقتُ فيها بعض الخطوط والألوان، ثم وضعتها في متحف الأيام، عبرة بالغة لمن أراد الاعتبار"[3].

تتحدث الرواية عن أحلام (عصام) الشاب الطبيب، الذي يسعى للوصول إلى قمة المجد، لكن الموت يحول بينه وبين ذلك. فالموت عندما يأتي ينهي كل شيء، الحياة بكل تفاصيلها الصغيرة منها والكبيرة، تلك التفاصيل التي تنسينا أننا بشرٌ فانون مهما تقدم العلم والمعرفة.

تعالج الرواية قضيتين اجتماعيتين مهمتين إلى جانب قضايا أخرى عديدة، أولها تفشي السرطان وعلله في المجتمع، والثانية حوادث السير والسرعة الجنونية، والاستهتار بحياة البشر، وهما مشكلتان وُفِّقَ الكاتب إلى حدٍ كبير في تصويرهما سرديا، وبأسلوب جذاب وشيق، ولها نهاية محزنة ونتيجة مأساوية.

ونقتطف منها هذه الفقرة التي تقول: **(تنهد سعد وقال: اطمئن.. قد تحتاج للصفح عن الآخرين إلا عصاماً.. فما كان الحقد ليجد طريقاً إلى نفسه.. لقد كانت الإساءات -مهما عظمت- تضيع في خضم**

---

(1) ينظر: قال الرّاوي: 48.

(2) دموع على سفوح المجد

(3) دموع على سفوح المجد:1.

قلبه الكبير، وتتلاشى.. إنسان يحمل على كاهله هموم الناس وآلامهم لن يجد في قلبه متسعاً ليكره أحداً. رحمه الله.. سمعت عن آماله الكبيرة فهزئت منها.. لقد كان فيما مضى هدفاً لسخريتي، واليوم أمسى مثلاً وضيئاً أتلمس خطاه. قال سعد في شرود حزين: رحمه الله.. نسجنا الأحلام معاً، وهندسنا المطامح، ورسمنا الدروب.. ليلة الحادث كان عندي.. كنا نخطط لمشاريع المستقبل.. كان شعلة من الاندفاع والحماس.. اتفقنا على إنشاء صندوق لمكافحة السرطان ليكون في المستقبل رافداً قوياً لكل المشاريع والمؤسسات التي تساهم في القضاء على هذا المرض الفتاك.. حلمنا بإنشاء جمعية وطنية لمكافحة السرطان، ومركزاً لأبحاث السرطان، ومستشفى لمعالجة السرطان و.. وفجأة.. اختفى رائد كل هاتيك الطموحات.. لقد كان خسارة فادحة لا تعوض. هتف صفوان في حماس: سعد.. بودي لو أقدم شيئاً.. إني مدين لعصام بصحوتي هذه وقد حق الوفاء.. سوف أسعى لتحقيق كل آماله.. أنا أملك المال وأنت تملك الفكرة والطموح.. فلنكن يداً واحدة.. نحن وبقية الأصدقاء.. سننشئ الصندوق الذي كان يحلم به عصام.. وسنسعى لإنشاء الجمعية.. ومركز الأبحاث.. والمستشفى.. أجل.. لا يوجد شيء مستحيل.. بودي لو أفعل شيئاً يا سعد.. شيئاً عظيماً أكفر به عن ذنوبي، وأخدم به ديني وأمتي ووطني)[1].

ولعل أهم عنصر في العمل السردي في هذه الرواية هو الصِّدقُ الواقعيُّ في رسمِ الشّخصيَّةِ واندماجها في رسم الأحداث، والصدق الواقعي هو الذي "يقصدُ بهِ أرسطُو ألَّا تشذَّ الشّخصيَّةُ عن أنماطِ الحياةِ الطّبيعيَّةِ"[2]. وواقعيّتها تكمن في طبيعتِها السردية؛ وما تحتويه من أفعال حقيقة أو خيالية، "تصوّر الواقع الاجتماعي، وتنتقِده، وتحدث موازنة بينَهُ وبين ما ينبغي أن يكون عليه"[3]. ويتمظهَرُ هذا الصّدقُ الواقعيُّ الّذي نتحدَّثُ عنهُ في أبعادهِ الأنثروبولوجيَّةِ فيما تضمَّنتهُ من غايات.

ويمكن أن نستجلي من الرواية عددا من القيم التي من شأنها أن تحقق الاستقرار والتنمية المجتمعية فيما يلي:

- الوفاء والتعاون والصداقة تعزز قيم الرحمة والعطف في التعاطي مع المصائب وحالات الخسائر.
- ينتج التطور الاجتماعي والثقافي حين تحول الأفكار والتطلعات، إلى مشاريع عملية منجزة لخدمة المجتمع وقضاياه.
- قوة الإيمان والأمل والعزيمة أساس في بناء المجتمعات وفي خدمة الدين والوطن والأمة.

---

(1) المرجع نفسه: 189.

(2) مبادئ النّقد الأدبي والفنّي، دراسة في المنظور والمنظور: 28.

(3) الأدب الشّعبيّ الدّرس والتّطبيق: 25.

- الصراع بين قيم الحق وقيم الباطل، وبين الأخيار والأشرار، وفي الأخير يكون الغلبة لقيم الحق حين تتوفر عوامل عزم وإرادة في نفوس الأخيار.

وبهذا ندرك أن الوظيفة الحقيقية للقصص والروايات تتمثل في أنها تساعد المتلقين على التفكير النقدي والتحليل، وتوفر لهم فرصًا لاكتساب معرفة جديدة وتوسيع آفاقهم، وهذا يسهم في تطوير الذكاء العاطفي والاجتماعي، الذي يعد أساسًا للتنمية الشخصية والاستقرار المجتمعي، من خلال منحهم القدرة على حل الإشكالات.

أنثروبولوجية الأمثال والحكم

المثل هو جملة عالية الذوق في اللغة العربية، وقد صيغ بإحكام شديد مكثف الدلالة. وله أثر اجتماعي وتربوي كبير. وقد لفت القرآن الكريم إلى أهمية الأمثال، في استخلاص الأشباه والأحداث والسنن المماثلة التي فيها عبرة وعظة، فضرب الله للناس من كل مثل "فأنار جوانب النفس الإنسانية، وقرّب كل حقيقة من حقائق الوجود ودقيقة، تقريرا للحق وترغيبا في الأخذ بأسبابه، وتحذيرا من الباطل وترهيبا من الوقوع في أحابيل الهوى والشيطان"[1]. قال تعالى: **(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)**[2]، وفي آية أخرى يقول: **(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)**[3].

أما الحكمة فهي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، وهدفها: إصابة الحق وتوخي العدل وإرشاد الناس والمجتمعات إلى الصواب، والأخذ بالتي هي أحسن. وتتفق الحكمة مع الذوق العربي؛ فهي أشبه شيء بالأمثال العربية والجمل القصيرة ذوات المعاني الغزيرة، التي أُولِع بها العرب، وهي نتيجة تجارب كثيرة تركزت في جملة بليغة، والعقل يميل إليها.

ولهذه الحكمة مثل مناظر يحتوي على بعض من مضمونها وهو قولهم: (اِحْفَظْ خِبِيْث الزَّاد تِلْقَاه طيَّبًا). والحكمة ميزة يؤتيها الله من يشاء من عباده قال تعالى: **"يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"**[4]. وممن آتاهم الله الحكم الحكيم لقمان حيث ذكره وسرد له عددا من تلك الحكم التربوية العظيمة، **"وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ"**[5]. وأيضا النبي داود عليه السلام في قوله تعالى: **"وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ"**[6].

---

(1) في المثل والتمثيل وضرب الأمثال: 35.

(2) سورة العنكبوت: الآية 43.

(3) سورة الحشر: الآية 21.

(4) سورة البقرة: الآية 269.

(5) سورة لقمان: الآية 12.

(6) سورة ص: الآية 20.

ويروى أن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال بعض الحكماء: من كثر أكله كثر شربه ومن كثر شربه كثر نومه ومن كثر، نومه كثر لحمه ومن كثر لحمه قسا قلبه ومن قسا قلبه غرق في الآثام[1].

والمثل والحكمة مبدآن عقليان، لكن المثل تبقى حادثته في الذاكرة، والحكمة قد تنوسيت أسباب إطلاقها، فأصبحت مبدأً مشاعاً بين الناس. كان العرب يميلون إلى الحكم، ويجدون فيها متعة نفسية، ولذلك كانوا مشوقين إليها يلتمسونها في الأمثال وفي الشعر، وفي كل كلام جميل محبب إلى النفس[2].

إن في الحكمة والأمثال شبكة واسعة من الجوانب الأنثروبولوجية التي تتصل بالمعرفة والوعي الثقافي، الذي يرتبط بالإنسان بطريق مباشر وغير مباشر، في العقيدة والفن والعادات والقوانين وغيرها[3].

وللأمثال والحكم عدة وظائف، فهما صورة لفكر المجتمع وثقافته، وبهما يستنير الوعي الإنساني ومعالجة المشكلات، بما من شأنه أن يخدم الاستقرار والتنمية، وبناء الحياة بناء سليما. وللأمثال وظيفة تربوية وأخلاقية في المجتمع، فهي بمثابة معايير أخلاقية لعامته وخاصته، يتناقلها الخلف عن السلف أخلاقيا ومنهجا سلوكيا يصفها عقلاء القوم لتكون ضابطا، والمثل بالنسبة للعامة قانون يحتم الالتزام به والإيمان الكامل بما يحمل من معنى، فكم من أمثال أنهت خلافات، وحلت مشاكل خاصة[4].

ومن الأمثال العربية التي يمكن أن نقف على أبعادها الأنثروبولوجية الآتي:

- **لعل له عذراً و أنت تلوم[5].**
- **حسبك من شر سماعه[6].**
- **كل شاة تناط برجلها[7].**
- **أَقِيْلُوا ذَوِي الهَيْئَاتِ عَثَّراتِهِمْ[8]**
- **المرءُ يَعْجَزُ لاَ المَحَالَةَ[9]**
- **مَنْ سَلَكَ الجَدَدَ أمِنَ العِثَار[10]**

---

(1) إحياء علوم الدين: 90/3.
(2) ينظر: خصائص الأسلوب البلاغي والأدبي في العصرين الجاهلي والإسلامي: 168.
(3) ينظر: محاضرات في لأنثروبولوجيا: (علم الإنسان): 163، نقلا عن: النقد الأدبي الأنثروبولوجي بين النظرية والتطبيق: 10
(4) ينظر: التناص في الأمثال الشعبية الإماراتية:253.
(5)الأمثال: 63.
(6) الأمثال: 72.
(7) المرجع نفسه: 274.
(8) مجمع الأمثال: 2/ 123.
(9) المرجع نفسه: 2/ 309.
(10) المرجع نفسه: 2/ 306.

وهذه الطائفة من الأمثال حتما تتفاعل مع الواقع وتشتبك مع الوعي الاجتماعي، وتعالج بؤرا وإشكالات في ذهنية الواقع الممارس، وتعمل على استقراره.

إنها تسعى لتفتح نافذة لمعرفة تفكير وسلوك المجتمع، ومعالجته في موقف من المواقف، وهي تختزل تجارب تراكمت للحكم على ما يماثلها وإسقاطها عليها، ويمكن الوقوف على تحليل الأمثال السابقة أنثروبولوجيا، إذ إن:

- المثل الأول يعالج قضية التسرع في الحكم على ظواهر العلاقات، دون تثبت، فيحدث النزاع ويختل الاستقرار، كما أنه ينبه إلى أهمية مراعاة ظروف الآخرين قبل الانتقاد أو والمسارعة باللوم. مما يعكس قيم التسامح المجتمعي.
- وفي الثاني يشير إلى احتواء الشر، حتى لا يتسع ويتفشى في دائرة كبيرة تقوض السلم والأمن والاستقرار في المجتمع، كما يلفت النظر إلى توخي الحذر في أن التعامل مع أشخاص سيئي السمعة قد يؤدي إلى مشاكل أو متاعب. وهو وصف عام لحادثة، أو لموقف، أو لفعل، أو لسلوك غير سليم.
- وفي المثل الثالث يقترب المفهوم من سابقيه، فيدعو إلى تحديد المسؤولية الفردية، فلا ينبغي لأحدٍ أن يأخذ بالذنب غيرَ المذنبِ في جناية، ولا تعمم المشكلات، وإلا فقدت الحياة قيمة العدل التي هي أساس الاستقرار. فيجب على الفرد أن يتحمل مسؤوليته عن أفعاله وقراراته. ومن زاوية أخرى قد يوحي المثل بالاستقلال في العمل ولزوم الذات.
- بينما المثل الرابع، يحمل قيمة إنسانية كبرى، وهو الصفح أو التغاضي، أو التعاون ومد يد العون، ويدخل فيه قيما مثلى عديدة، أن تقدر في الأعمال بإيجابياتها لا بما تحدث من سلبيات طارئة.
- المثل الخامس ويقرأ بصيغة أخرى (المرء يعجز لا محالة) وهذه الصيغة تضرب لقدرات الإنسان المحدودة، وأنه لا يمكن أن يحقق المستحيل وما هو فوق طاقته. وبالصيغة الأخرى يُشير إلى قدرة الإنسان على التعامل مع الواقع، وقبول الحدود والقيود التي تواجهه وهي صورة دافعة لنقيض المفهوم، فلن يعدم المرء حيلة في العمل وتحقيق الهدف، والسبل كثيرة والحيل متعددة، والعجز يكون في المرء لا في صعوبة تحقيق الغاية.
- ويحمل المثل السادس معادلة سلوكية على مستوى فردي وجماعي، تتمثل في اتخاذ الخطوات الصحيحة، والبناء على أساس سليم حتى تكون النتيجة سليمة، ويتجنب الفشل، والجدد هي الأرض البيضاء المستوية. ويمكن فهم المثل من منظور انثروبولوجي انطلاقا من أهمية السير في الحياة على أسس ثابتة ومنظمة ودراسة المآلات المستقبلية للبدايات، لتحقيق النجاح وتفادي العثرات في حياة الإنسان وتطور مجتمعاته.

الوظائف الأنثروبولوجية للأدب

الأدب يعكس الواقع والطبيعة، فيستطيع المرء أن يراها من منظور آخر، منظور إنساني يشخصها، ويصفها بنوع من الخيال الذي يلائم الذات الفردية والجمعية، فيحقق بذلك وظائف في الاستقرار الذاتي والمجتمعي. وهذه الخاصية نستنبطها من لامية الشنفرى حين ودَّع قومه الذين لا يطيقون بقاءه فيهم نتيجة لاعتبارات مغلوطة، فقرر الابتعاد عنهم، والبحث عن أهلين غيرهم، علّه يجد عندهم الأمن والاستقرار، فقال[1]:

أَقيمـوا بَني أُمّـي صُـــدورَ مَطِـيَّكُم فَـــإِنّي إِلـــى قَـــومٍ سِـــواكُم لَأَمَيـــلُ
فَقَـد حُمَّـت الحاجـاتُ واللَيـلُ مُقـمِرٌ وَشُـــدَّت لِطِيّـــاتٍ مَطـــايا وَأَرحُـــلُ
وَفي الأَرضِ مَنـأى لِلكَـريمِ عَـنِ الأَذى وَفيهـــا لِمَـــن خـــافَ القِلـــى مُتَعَـــزَّلُ
لَعَمرُكَ ما في الأَرضِ ضيقٌ عَلى اِمرِئٍ سَـــرى راغِبـــاً أَو راهِبـــاً وَهـــوَ يَعقِـــلُ
وَلي دونَكُـم أَهلَـــونَ سـيدٌ عَمَلَّـسٌ وَأَرقَـــطُ زُهلـــولٌ وَعَرفـــاءُ جَيـــأَلُ

ثمة أبعاد أنثروبولوجية تستوحى من أبيات الشاعر الشنفرى هذه، منها: هدفه من رحلته وهجره لبني أمه وقومه، وهو الابتعاد عنهم بعد أن ضاق العيش في أوساطهم، كما يعكس في إشاراته قيمًا لا بد أن يحافظ عليها وهي مرتبطة بالشرف والكرامة في المجتمع، فقد كاد يفقدها، ومن هنا تظهر أهمية الانعزال والبعد عن القوم في إتاحة فرص التفكير والتأمل في شأن المستقبل، حيث يتحدث عن وجود "منأى لِلكَريمِ عَنِ الأَذى" ومكان "لِمَن خافَ القِلى مُتَعَزَّلُ"، مما يمكن أن يرتبط بقيم التأمل والفلسفة في بعض المجتمعات. كما يشعرنا بأهمية التغيير والهجرة، كمكان آمن متعزَّلُ. والنص في المجمل يعكس قيمًا اجتماعية وثقافية تتعلق بالعشائر والكرامة والتأمل والمكانة الاجتماعي والهجرة والانتقال.

- الأدب يوفر للإنسان مادة للتفكير، فيبني فكره على نمط من الجمال فيفكر بطريقة أخرى، وتتجدد لديه الرؤى العقلية للأشياء من منظور جمالي، ولطالما كان الأدب مهذبا للعقل كما كان مرققا للعاطفة. إنه يزود الإنسان بطاقات شعورية منسجمة مع الحياة والأشياء. حتى إننا نرى العديد ممن لا تتوفر لهم خيالات واسعة يتموضعون في الواقع ولا يغادرونه، ومن ثم ينفصلون عن مواصلة البناء والتخطيط للمستقبل. فقد روي أن عيسى بن موسى، كتب إلى المعتصم يشير عليه بعدم التعجل في إنفاذ أمر[2]:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا تدبّر فإن فساد الرّأى أن تتعجّلا

فأجابه المعتصم:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإنّ فساد الرأي أن تتردّدا

---

(1)، ديوان الشنفرى :5.

(2) زهر الآداب وثمر الألباب: 1/ 257.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

وإنه حينما يكون الأدب ذا ودة عالية، ويمتلك رسالة ناضجة، تُصبح فيه المادة الفكرية أكثر رقياً ومدعاةً للتنامي، وهنا يُتذوق المعنى، وتُدرك مقاصد الأدباء، حيثُ يكون للقارئ منهج ورسالة جليّتين، ويُغادر الناس وهم في مقاعدهم بمخيّلات خصبة، وتتعرفّ على نكباتٍ سابقة، وقصصٍ ماضية، وأساطير متداولة، وتنشأ في بحر المعارف والعلوم وتجترع من زُلالها وطيّبها، ويكون زادك الثقافي في مختلف المجالات، في الدين واللغات وغيرها مما طاب لك التزوّد به، فضلاً عن الإلمام بتقاليد المجتمعات وتاريخها وثقافاتها[1].

- والأدب منبع أصيل للقيم، منه تنشأ قيم جديدة، إضافة للقيم التي يدونها في إبداعه، تلك القيم المتوارثة، العريقة حين يشيد بها ويعززها، وقد رأينا الشعر الجاهلي حافلا بها، كالكرم والوفاء والشجاعة، وصون الجار والدفاع عن الذمار، ونجدة الملهوف والتعاون وغيرها من الشيم، ولقد عبر عن ذلك الشاعر عنترة حين قال[2]:

لا يَحمِلُ الحِقدَ مَن تَعلو بِهِ الرُتَبُ	وَلا يَنالُ العُلا مَن طَبعُهُ الغَضَبُ
وَمَن يِكُن عَبدَ قَومٍ لا يُخالِفُهُم	إِذا جَفوهُ وَيَستَرضي إِذا عَتَبوا
قَد كُنتُ فيما مَضى أَرعى جِمالَهُمُ	وَاليَومَ أَحمي حِماهُم كُلَّما نُكِبوا
لِلَّهِ دَرُّ بَني عَبسٍ لَقَد نَسَلوا	مِنَ الأَكارِمِ ما قَد تَنسُلُ العَرَبُ
لَئِن يَعيبوا سَوادي فَهوَ لي نَسَبٌ	يَومَ النِزالِ إِذا ما فاتَني النَسَبُ

فالأدب يسعى إلى التأثير في المجتمع ويعمل على تعزيز شيمه وفواضله، ويسهم في بنائها ضمن تكوين شخصية الفرد والمجتمع، وتوجيه السلوك الإنساني نحو الخير والمثل العليا، وتعزيز الإيجابية في نفوس أفراد المجتمع، ومن هنا فإن صلة الأدب بالمجتمع تظهر ماثلة في أقدم صُور الأدب، كما في "الشعر القصصي عند اليونان، صورة الإلياذة، فسنجدها لا تتغنى بعواطف فردية فحسب، وإنما تتغنى بعواطف الجماعة اليونانية لعصرها، مصورة حروبها في طروادة ومَن استبسلوا فيها من الأبطال، ومن هنا نشأ القول إن ناظمها ليس هو هوميروس وحده"[3].

---

(1) ينظر: دور الثقافة الأدبية في عصرنا الحديث وهل تصنع تاريخا، مقال منشور على موقع الوطن السعودية، بتاريخ: الأربعاء 17 نوفمبر 2021 - 12 ربيع الثاني 1443 هـ

(2) ديوان عنترة.: 11

(3) المدخل الاجتماعي للأدب، (نقلا عن الأدب والمجتمع، مجلة الشروق، على الرابط:

https://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?cdate=26112018&id=da7acd9f-7486-4d30-84ce-6c56545fea90

ويعمل الأدب بشتى فنونه على خلق التوازن والانسجام في علاقة الإنسان بذاته، وبغيره من أفراد المجتمع، فتكون الحياة في سيرها أمنة مستقرة ومتوازنة، وأي إغفال من جانب الأدب لهذه السمة فإنه يؤدي إلى غياب الوظيفة التواصلية والتأثير الأخلاقي[1].

- يشكل الأدب سياجا لحماية الفرد والدفاع عنه في العديد من القضايا، ولذلك كان الشعر الجاهلي وبالذات الهجاء يشكل سلاحا يحمي القبيلة والأفراد، وكان الشاعر يذود بشعره عن حماهم، وكما كانت القبائل حريصة على تسجيل مفاخرها في شعر شعرائها كانت كذلك حريصة على أن تتجنب ذم شعراء القبائل الأخرى وهجاءهم. وهل أبلغ في الدلالة على خشيتهم الهجاء وتخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب ويسب به الأحياء والأموات من أنهم كانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق وربما شدوا لسانه بنسعة كيلا يهجوهم، كما صنعت بنو تيم بعبد يغوث بن وقاص الحارثي حين أسر يوم الكلاب[2]، فقال في ذلك عبد يغوث[3]:

أقول، وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا من لسانيا

- الأدب وسيلة وعي متقدمة يغرس صفة تقبل الآخر فردا ومجتمعات وثقافة، فهو يعطي صورة عما لدى الآخر ويقدمها في صورة وجدانية متقبلة، ومن هنا تزول التوترات في العلاقة وفي المنظور للآخر، ويحفز على التسامح والتفاهم وينتج هنا استقرارا وتوافقا ويرسم سبل الاحترام بين الناس. وهذه كله صور وأنساق ثقافية واجتماعية كامنة يسعى البعد الأنثروبولوجي للبحث هنا "في نصوصِ الأدبِ والشِّعرِ والأمثالِ، وكُلِّ الأشكالِ الإبداعيَّةِ المُمكنةِ، وإلقاءِ الضّوءِ على جذورِها التّاريخيَّةِ، وما يدخلُ في موازينِ السّلطةِ وتأثيرِها، وما يدخلُ كذلكَ في دوائرِ المركزِ أو الهامِشِ"[4]، وتقديمها ليتم من خلالها توفير أكبر قدر من التجارب والخبرات، وقد تدخل فيها التوجيهات الدينية المتعلق بحيثيات تلك النصوص، ومن هنا "فقد رأينا النبي - صلى الله عليه وسلم- يشيد بالشعر الهادف الذي يسعى لغاية سامية، فحينما أنشده النابغة الجعدي:

بَلَغنَا السّما مَجداً وَجوداً وَسُؤدَداً وَ إِنّا لَنرجُو فَوقَ ذَلِكَ مَظهَرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أين المظهر يا أبا ليلى؟ فقلت: الجنّة، يا رسول الله. قال: أجل إن شاء الله. ثم قال: أنشدني، فأنشدته من قولي:

وَلا خَيرَ فِي جَهلٍ إِذَا لَم يَكُن لَهُ حَلِيمٌ إِذَا ما أَورَدَ الأَمرَ أَصدَرا
وَلا خيرَ فِي حِلمٍ إِذَا لَم تَكُن لَهُ بَوَادِرُ تَحمي صَفوَهُ أَن يُكَدَّرا

---

(1) ينظر: الأدب والقيم كيان واحد، مقال منشور على موقع الراية القطرية، الثلاثاء، 28 يناير، 2020م.

(2) ينظر: مصادر الشعر الجاهلي: 110.

(3) المفضليات: 157.

(4) ينظر: موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجيَّة.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

فقال صلى الله عليه وسلم: أجدت، لا يفضض الله فاك. قال الراوي: فنظرت إليه، فكأنّ فاه البرد المنهلّ، ما سقطت له سنّ ولا انفلّت، ترفّ غروبه"[1].

- يحفز على الإبداع، ويتيح فرص التواصل اللغوي والتثقيف، من خلال الاستخدام الفاعل بشكل دقيق وجميل للغة في حالتها الأعلى، وتحسين مهارات الاتصال، فالأدب صورة اللغة الراقية وهو يلهم على التفكير الإبداعي، من خلال تحفيز الخيال وتوسيع آفاق الفكر والثقافة. والتعريف المبسط للثقافة أنها تمثل مجموع أنماط السلوك المكتسبة التي يأخذ بها معظم أفراد مجتمع معين، أما من منظور أنثروبولوجي؛ فتعرف الثقافة بأنها: شبكةً مركبة من الأنماط والموضوعات الأساسية التي تمثل بصفة عامة؛ مجموع ما تعلمته البشرية بفضل قدرة الإنسان على استخدام الرمز، ومجموع الخبرات الإنسانية لا يتضمن ما هو معروف الآن فقط، وإنما يتضمن كذلك معظم ما اكتشفه أبناء العصور الغابرة[2]. وهذا كله يقدمه الأدب في شتى صوره، وغايته الأسمى توفير التوافق الإنساني مع الواقع.

خاتمة البحث

ناقش هذا البحث موضوع الأدب بوصفه قوة فاعلة في خلق الاستقرار المجتمعي من وجهة نظر أنثروبولوجية اجتماعية، إذ تبين أن الأدب بشتى فنونه ليس للتسلية والمتعة فحسب، بل هو جزء أساس من الرؤية الحضارية، يسهم في بناء مجتمع مستقر ومستدام. وعلى كل فقد توصل الباحثان إلى النتائج الآتية:

- يعد الأدب أحد العوامل البارزة التي تستطيع أن تلهم الأفراد المشاركة في الحياة المجتمعية، ويعزز الوعي وتحسين ظروف العمل، ويبني سبل التفاهم، ويشجع على الإبداع، مما يساهم في الاستقرار والتنمية المستدامة للمجتمعات.
- الأدب بشكل عام في كل أنماطه وأشكاله الشعرية والنثرية يساعد الأفراد على اكتشاف مواهبهم وتطوير قدراتهم الإبداعية. ومن خلال عرض قصص النجاح والصمود، يمكن أن يشعل الأدب الروح الريادية ويشجع على الابتكار والتغيير الإيجابي.
- تحفز القصص والروايات والأمثال الأفراد على التفكير النقدي والتحليل، وتوفر لهم فرصًا لاكتساب معرفة جديدة وتوسيع آفاقهم، وهذا يسهم في تطوير الذكاء العاطفي والاجتماعي، الذي يعد أساسا للتنمية الشخصية والمجتمعية.

---

(1) دلائل الإعجاز: 26.

(2) ينظر: النقد الأدبي الأنثروبولوجي بين النظرية والتطبيق: 8-9.

- تحمل الآدب تجارب حياتية للأدباء والشعراء، يقدمون من خلالها القيم والمبادئ الأخلاقية بطريقة جذابة وملهمة، مما يسهم في بناء مجتمع يتسم بالنزاهة والتسامح والعدالة.
- قراءة الأدب والتعمق في فهم نصوصه يعزز لدى القراء مكاسب ومهارات تواصلية راقية، من خلال اللغة العالية التي يقدمها، ومن خلال الكتابة والقراءة، وهذه يؤدي إلى تعزيز التواصل والتفاعل الاجتماعي وتحسين أداء الأفراد لخدمة أنفسهم وتنمية مجتمعهم.

يمكن للأدب بشكل عام أن يقدم دوراً حيوياً في تعزيز التنمية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وبناء مجتمعات مستقرة ومزدهرة.

المراجع:

الأسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة 1988م.

الجابري، في المثل والتمثيل وضرب الأمثال، مبارك العلمي، المجلة الإلكترونية،1997، ع35.

الجاسم، عائشة، الأدب والقيم كيان واحد، مقال منشور على موقع الراية القطرية، الثلاثاء، 28 يناير، 2020م.

الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى 2001م.

حمداوي، جميل، النقد الأدبي الأنثروبولوجي بين النظرية والتطبيق، (قراءة ثانية لشعرنا القديم، مصطفى ناصف أنموذجا)، دار الريف للطباع والنشر، المغرب، ط1، 2019م.

رعدان، عبد الكريم حسين، خصائص الأسلوب الأدبي والبلاغي في العصرين الجاهلي والإسلامي، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، الطبعة الأولى 2019م.

الزبيدي، عبد الحكيم، التناص في الأمثال الشعبية الإماراتية، جامعة الشارقة- الإمارات العربية المتحدة، ديسمبر 2019م.

زغب، أحمد، الأدب الشّعبيّ الدّرس والتّطبيق، مطبعة مزوار الوادي، ط2 2008م،

زكي، عماد، دموع على سفوح المجد، دار القلم، دمشق.

الزوزني، حسين، شرح المعلقات السبع، دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى 2002م.

السماعيل، شوق، دور الثقافة الأدبية في عصرنا الحديث وهل تصنع تاريخا، مقال منشور على موقع الوطن السعودية، بتاريخ: الأربعاء 17 نوفمبر 2021 - 12 ربيع الثاني 1443 هـ

سميث، شارلوت سيمور، موسوعة علم الإنسان، المفاهيم و المصطلحات الأنثروبولوجية، ترجمة مجموعة من الأساتذة، بإشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، مصر، 2009

الشنفرى، الديوان، جمعه وحققه: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1997م.

عبد الجبار، عبد الله - محمد عبد المنعم خفاجى، قصة الأدب في الحجاز، مكتبة الكلية الأزهرية.

علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي الطبعة الرابعة 2001م.

ابن قتيبة، الدينوري، الشعر والشعراء. دار الحديث، القاهرة 1423هـ

القرشي، أبو الخطاب، جمهرة أشعار العرب، حققه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،

القيرواني، إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل.

القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، 1981م.

الكومي، محمد شبل، مبادئ النّقد الأدبي والفنّي، دراسة في المنظر والمنظور، الهيئة العامة المصريّة للكتاب، القاهرة، ط1، 2007م،

مندور، محمد، في الميزان الجديد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م.

ابن منقذ، أسامة، لباب الآداب، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الثانية 1987م.

الهروي، القاسم بن سلام، الأمثال، تحقيق: عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى 1980.

Bock, P. K., & Leavitt, S. C. (2018). Rethinking Psychological Anthropology: A Critical History. Waveland press